الأستاذة خميسي

المحاضرة الثالثة: الشعر الشعبي: تروبادور

تمهيد:

ظهر الشعر في أوروبا منذ العصور القديمة لا سيما عند اليونانيين الذين وضعوا أسس العديد من الأشكال الشعرية والفكري، ومع ذلك لم يظهر الشعر الغنائي الموجه للمرأة في أوروبا إلا مع أواخر القرن الثاني عشر خصوصا في منطقة جنوب فرنسا، حيث برزت حركة جديدة من الشعراء الذين أطلق على شعرهم مصطلح التروبادور، كان هؤلاء الشعراء الجوالون ينظمون قصائدهم الذي يتغنى فيه الشعراء الجوالون بالمرأة مادحين ومعبرين عن مشاعر وجدانية صادقة، وهو أسلوب كان غريبا على الأعراف والتقاليد السائدة أنداك في أوروبا، غير أن هذا النوع الجديد من الشعر في الساحة الأوروبية كان له امتداد للشعر الأندلسي مثل الموشحات والأزجال، من هنا تبرز الإشكالية الأساسية والتي من خلالها سنخوض هذه المحاضرة باحثين عن الشعر الشعبي الأوروبي وأحد أهم أشكاله والمتمثلة في التروبادور، فنبحث في مفهومه ونشأته وخصائصه وأبرز أعلامه، كما سنتطرق أيضا الى العلاقة بين هذا النوع من المشهد الغنائي في الأندلس الذي يعد مصدر إلهام مهم لهذا النوع من الشعر، خاصة الموشحات والأزجال الأندلسية.

1- تعريف التروبادور:

يقال إن التروبادور" troubadours"في لغة البروفانسيين، اسم فاعل من الفعل "تروبار " trobar بمعنى "وجد" فيكون اسم الفاعل، إذا المبدع المبتكر، وهناك نفر من الباحثين يرى أن أصل الكلمة عربي من الفعل "طرب" : أي اهتز فرحا أو حزنا، أو أ نها من الفعل "طرب" أي تغنى، أو أ نها من الفعل "طرب" الذي شاع عند أهل الأندلس، بمعنى عزف الموسيقى على العود أو غيره من الآلات الموسيقية، ثم أضاف إليه الإسبان وفق لغتهم حرف "آر" فقالوا "ضروبا أو طروبا troba[1]"، وهو شكلاً من أشكال الشعر الشعبي غير الرسمي الذي ازدهر وانتشر بقوة في جنوب فرنسا وشمال إيطالي وإسبانيا خلال القرنين الثاني والثالث عشر ميلادي، وقد أصبح هذا اللون من الشعر اليوم واحداً من أهم موضوعات الدراسة في الأدب المقارن

نظراً لدوره المحوري في تتبع جذور الشعر الغنائي الأوروبي وتطوره، ويمثل هذا الشعر تروبادور الأساس الذي تُبنى عليه كل دراسة تستهدف الكشف عن أصول الغناء العاطفي في الغرب.

ظهر شعر التروبادور في مقاطعة **بروفانس** جنوب فرنسا، وشكل نقطة الانطلاق الأول لظهور الأدب الأوروبي المكتوب باللغات المتفرعة عن اللاتينية، وينتمي هذا الشعر إلى لغة **(أوك)** وهي لغة الجنوب الفرنسي الذي تتميز عن لغة الشمال، مما جعل إنتاج التروبادور يحمل طابعاً لغوياً وثقافياً خاصاً[2]، تستعمل تسمية **التروبادور**عادة إلى جانب أسماء أخرى قريبة منها في الدلالة. ظهرت هي كذلك في فرنسا في الفترات نفسها، غير أن لكل مصطلح منها معنى خاص يجب التمييز بين هذه المصطلحات، حتى لا نقع في الخلط الذي وقع فيه المؤلفون العرب المعاصرين. ومن بين هذه التسميات تروبادور (troubadour) **وجونغلير** (**Jongleur**) **ومينسترل (menestrel)** **وتروفير (trouvere)** وكلها مصطلحات تبدو متقاربة ظاهريا لكنها تختلف في الوظيفة والدور والمستوى الاجتماعي، فالتروبادور هو في الأساس شاعر وملحن وعاشق يبدع في صياغة القوالب الشعرية ويبتكر الصور والمعاني، ويضع الألحان التي تُؤدي بها القصائد وهو يعد العقل الخلاق خلف المقطوعة الغنائية نصا ولحنا، وغالبا ما ينتمي **التروبادور** إلى طبقات اجتماعية راقية من النبلاء أو من ذوي النفوذ والثروة. أما **التروفير** فلا يختلف عن **التروبادور** من حيث الوظيفة الإبداعية بل هو امتداد لمدرسة **تروبادور البروفنسية** والفرق بينهما في اللغة والمنطقة لا غير. **فالتروبادور** يكتب بلغة **(أوك)** في جنوب فرنسا بينما يكتب **التروفير** بلغة **(تويل)** في شمالها في حين يمثل **الجونغلير** الجانب الأدائي من هذا الفن وهو المؤدي أو المنشد أو الشخص الذي يعرض الشعر والموسيقى للعامة، ولا يشترط فيه أن يكون شاعرا أو ملحنا وغالبا ما ينتمي الجونغلير إلى طبقات اجتماعية أقل، ويعد الحلقة التي توصل شعر **التروبادور** إلى جمهور أوسع. وبهذا يمكن القول إن العلاقة بين **التروبادور** والجونغلير هي علاقة مبدع أصيل بمؤدي ناقل بينما يشترك **التروبادور والتروفير** في الخلق والإبداع مع اختلاف البيئة واللغة فقط[3].

وأما إذا ارتأينا الحديث عن الشعر الغنائي التروبادوري فإن ظهوره يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي وبرغم من وفرة الدراسات التي تتناوله ما يزال الباحثون عاجزين عن تحديد مصادره الأولى بشكل قاطع، غير أن العلاقة بينه وبين الحضارة العربية الأندلسية تبدو أقرب الافتراضات إلى المنطق لما يظهر من تشابهات واضحة بين الشعر التروبادوري وبعض الأشكال الغنائية الأندلسية، وأول من لفت الانتباه وأشارة إلى هذا الارتباط هو الباحث **باربييري (G. barbieri)** في القرن السادس عشر، حين أشار إلى أثر الأدب الأندلسي في الأدب **الأوكسيتاني** المجاور، ثم جاء في أواخر القرن الثاني من عشر ميلادي الباحث اليسوعي الإسباني **خوان أندريس (Juan)** ليؤكد هذه الفكرة ويدافع عنها، ومنذ باربييري إلى اليوم لم يصل الدارسون إلى اتفاق مواحد حول المصادر التي استقى منها الشعر الأوكسيتاني خصائصه المميزة، فقد احتفظ كل باحث بفرضيته الخاصة، وغالبا ما كانت هذه الفرضيات متأثرة باعتبارات قومية أو دينية فابتعدت عن الحياد العلمي[4]، وفي ظل هذا التباين يمكن تقديم أبرز الاتجاهين في تفسير نشأة هذا الشعر:

أ-الاتجاه الأول:

وهو القائل برفض التأثير العربي، ويرى أن القافية الواحدة في الأقفال لها أمثلة في الشعر اللاتيني الذي يعد شعر.**Troubadour** ويزعم البرتغالي **رودريجيبث لابا**، بأن أمثلة الشعر اللاتيني التي تتضمن مثل هذه القافية المتكررة سابقة على الأزجال **ابن قزمان**. وقد نقض المستشرق الإسباني **بيدال** مثل هذا الزعم وقال بأقدمية النماذج، لأن **ابن قزمان** نفسه يشيد بأن **ابن نمارة** الزجال الذي سبقه ولا شك بأن **ابن نمارة** قد نسج على منوال نموذج سابق له، إذ لا ينتسب إليه الريادة في فن الأزجال[5].

ب- الاتجاه الثاني:

يرجع نشأة شعر تروبادور الى أصول الشعر الغنائي الأوروبي، وتعود مباشرة إلى الشعر **البروفنسالي** في منطقة **بروفانس**، الواقعة بين فرنسا وإسبانيا. وقد ظهر هذا الشعر في أوائل القرن الثاني عشر على يد شعراء أمثال **غيلوم التاسع(Guillaume)**، ويؤكد أنصار هذا الاتجاه ومن أبرزهم من اناقد الفرنسي **جان**

روا (Jean Roy)أن الشعر البروفنسالي منذ نشأته كان بعيدا عن أي تأثير أجنبي، أي أن ظهوره وتطوره كان بشكل مستقيل عن الشعر العربي، أو الثقافات الأخرى حاملا سماته المحلية والفنية الخاصة منذ البداية[6].

في حين يرى المستشرق الألماني ريبيرا الذي قام بعدة بحث ودراسات لإثبات صحة نظرياته حول تأثير الموشحات والأسجال الأندلوسية على شعر التروبادور تبنى هذه الفكرة لاحقا عدد من العلماء البارزين مثل **بيدال و أنخال بالنثيا (Ag- palencia) وجارثيا جومث ." jometh jarthia**، حيث أسهم بشكل كبير في تطوير هذه النظرية وتحليلها تاريخيا وأدبيا وقد أفضى هذا الجهد الأكاديمي المتوازن إلى جعل النظرية مقبولة ومعترفة بها في الدراسات الحديثة بحيث صارت إحدى المرجعيات الأساسية لفهم نشأة شعر **التروبادور** وعلاقته بالأدب الأندلسي[7].

لقد أقر المستشرق الإسباني **ريبيرا** في دراساته المتخصصة، بأن الموشح والزجل الأندلسيين يشكلان الأساس الذي يمكن من خلاله تفسير الأوزان والأنماط الشعرية التي شاعت في العالم المتحضر، خلال العصور الوسطى. ولم يكتفي **ريبيرا** بطرح فرضيته فقط، بل قدم أدلة تاريخية على انتقال بحور الشعر الأندلسي إلى أوروبا جانبا إلى جانب مع الموسيقى العربية، تماما كما انتقلت علوم القدماء وفنونهم عبر محطات متعددة، من الإغريق إلى روما ومن روما إلى بيزنطة، ومن الهند إلى فارس ومن بغداد والأندلس إلى بقية أوروبا، وانطلاقا من هذا التصور يرى **ريبيرا** أن شعراء **التروبادوروالبروفنساليين** الأوائل قد استفادوا من أقدم قوالب الزجل الأندلسي وهو ما يتجلى بوضوح في شعر **أول تروبادور** بروفنسالي **غيلوم التاسع. دوق أكيتانيا** الذي يعد أيضا من أوائل الشعراء في اللغة الأوروبية الحديثة، وقد بقي من شعره إحدى عشرة قصيدة منها خمسة كتب بعد سنة 1102هـ، وتقوم قصائده على بناء مقطوع يتألف من عشر فقرات كل فقرة مكتوبة من ثلاث أشطار موحدة القافية، تعقبها قفلة نقافية واحدة وهو بناء يذكر بوضوح في بنية الزجل الأندلسي، ويظهر هذا النمط نفسه عند اثنين من أقدم التروبادوريين هما **تراكامون cercamon ومركبرو marcabrou** الذين عاش في النصف الأول من القرن الثاني عشر وقد انتشر هذا الشكل الشعري

لاحقا في الشعر الشعبي الأوروبي، وفي الشعر الأدباء **الفرنسيسكان** في القرن الثالث عشر والرابع عشر، ثم في أغاني الكرنفالات في **فيرنتسه** خلال القرن الخامس عشر الميلاد[8].

وأما إذا تتبعنا أصل لفظة **Troubadour** نجد أن تحديد معناها في الآداب اللاتينية أمر بالغ الصعوبة، ذلك أن مدلولها في العصور الوسطى كان واسعا ومتشعبا جدا، فقد كان يشمل فئات متعددة من المجتمع من التعساء والمحرومين والصعاليك والطلاب الفقراء وبعض رجال الدين المتسكعين، إضافة إلى السكارى والمعربدين وكل من جاء إلى الحياة محروما من الثروة والجاه، لكنه يملك ميلا فنيا ويقضي حياته في حرية مطلقة، هؤلاء كانوا يقتاتون من إضحاك الآخرين وتسليتهم، ويجدون الراحة في الموسيقى والآداء والمرح ويتمتعون بحركاتهم البهلوانية وألعابهم التي تقترب من الشعوذة، مع ذلك فإن هذا الاتساع في الدلالة لا يعني أن الشاعر الجوالة كان مجرد متشرد أو سائل فقير أو مشعوذ، فقد كان في كثير من الأحيان عازفا للموسيقى ومنشدا للملحمة وقارئا للقصائد الغزالية، بل وناظما للشعر نفس[9]. الشعر الذي يبتعد عن الشعر المألوف في أوروبا في تلك الحقبة، فقد كان له شعراؤه وموضوعاته وخصائصه التي تميزه عن باقي الأشعار وهو ما دفعنا للبحث عن هذه الخصائص وأجملناها فيما يلي:

<u>خصائص شعر التروبادور:</u>

يعد شعر التروبادور ظاهر أدبية فريدة، نشأت في سياق تاريخي تداخلت فيه التيارات الثقافية والقومية واللغوية دون أن تُعيقها حدود جغرافية أو سياسية، وقد تميز هذا النوع من الشعر بعدة ميزات تفرد بها ونذكر منها.

<u>أ-اللغة والموسيقى:</u>

<u>-اللغة:</u> إذا تحدثنا عن لغة التروبادور فسنتطرق بالضرورة الى أشعار **التروبادور** الأوائل، الذين كتبوا بلغة **الأوك** وهي الكلمة التي استعملت إلى جانب كلمة الأويل لتمييز لهجتي الجنوب والشمال في فرنسا، وقد أصبحت لغة **الأوك** بلهجتها الجنوبية في العصور الوسطى لغة الشعر والأدب، لا في جنوب فرنسا فحسب

بل في جزء من شمال إسبانيا وفي مناطق من شمال إيطاليا، أيضا لم يكن الأمر مختصرا على شعراء الجنوب إذ إن هناك شعراء ولدوا في مناطق تتحدث بلغة **الأويل** غير أنهم اختاروا الكتابة بلغة **الأوك لما** لمسوا فيها من مرونة وتنوع وقدرة عالية على التعبير الشعري، وقد شعر فنانو الشمال بفرح غامر عندما اكتشفوا تجربة **تروبادور** في الجنوب، فسارعوا إلى محاكاة هذا الفن الرقيق واسع الأفق.

-الموسيقى: كان **التروبادور** ينظمون أشعارهم على إيقاع نغمة موسيقية مصاحبة وكانوا يستهجنون الشاعر الذي يقرأ قصيدته إنشادا من غير موسيقى أو يحولها إلى قالب قصصي لا يحمل الطابع الغرامي، فالعناصر الأساسية التي يقومُ عليها شعر **التروبادور** هي النغم الموسيقي والصياغة العروضية والمضمون العشقي، وإذا كان لابد من المفاضلة بين هذه المقاومات فإن **الموسيقى** تحظى بالمكانة الأبرز في هذا الفن، إذ يُقال كثيرا إنَّ تفوق **تروبادور** معين على غيره يعود إلى ألحانه وأدائه الفردي، ولو كان متوسط المستوى من حيث نظمَ الشعر.

ومن الموسيقيين المرموقين في هذا الفن نجدُ **جوفري روديل وألبيرت دوسيستيرون** وبرنارد دو **فانتادور**، وغيرهم وتمتاز موسيقى **التروبادور** بطابعها العذب المرح القريب من الذائق الشعبية وربما كان الشاعر الذي يجمع بين قول الشعر والعزف يستلهم ألحانه من الجماهير ليعيد تقديمها لهم في قصائد تحرك الوجدان وتغذي الذوق، يغنيها **الجونغلير أو المينيسترل** يرافق هذا الغناء بآلة موسيقية غالبا ما تكون العود أو الأرغن المحمول أو ما شابههما[10].

ب-على مستوى القوالب العروضية والمضمون:

-القوالب العروضية: أحصى بعض الدارسين أنواع المقاطع والأشطر والقوافي المختلفة التي استخدمها **التروبادور** في قصائده الباقية فوجدوا أن **817** نوعاً من المقاطع و 1422 نوعاً من الأشطر و 1001 نوع من القوافي، على أننا نكتفي بإبراز نقطة مهمة وهي أن قصائد **التروبادور** الأوائل تتألف في الغالب من 6 أو 7 مقطوعات وكل مقطوعة تتألف من جزئيين:

الأول يعرف بالغصن ويتألف الغصن من ثلاث أشطر أو أكثر تنتهي بقوافي مماثلة.

والثاني: هو القفل الذي تتفق قافيته مع قافية نظيره في كل مقطوعة، ويتكون من شطر أو شطرين ويعرف القفل النهائي في آخر مقطوعة بالخرجة وهو ما يربط المقطوعات وينهي القصيدة باستخدام شعري وموسيقي ويلاحظ من ذلك التنوع الكبير في المقاطع والأشطر والقوافي[11].

- المضمون:

تنوعت أغراض شعر **التروبادور** تنوعا لم يُبعدهُ عن طبيعته الأساسية، وقد تمثلت هذه الأغراض في عدة أنماط مميزة

الباستوريل أو الرعويين: وهي قصائد تصور مغامرات غرامية بين الشاعر الفارس، أثناء سفره لرعي الغنم، وبين فتاة جميلة يصادفها في الطريق تجمع الأزهار والورود تغني وترقص، فيقف الشاعر فيحييها ترد التحية ثم تنشأ بينهما حوار غرامي ينتهي دائما بتمسك المرأة بعفتها والحفاظ على شرفها

الألبا أو الفجريات: وهي أغاني يتكرر فيها ذكر كلمة الفجر في نهاية كل مقطوع من القصيدة: يظهر فيها الشاعر وهو في ليلته مع معشوقته يتبادلان الشوق والهيام، ولا ينتب[12]ه العاشق إلا عند سماع صوت صديقه أو صوت طائر مبكر يعلن بزوغ الفجر فيسرع عندها إلى مغادرة وكر غرامه مكرها أملا في العودة إليه من جديد.

التّانسو أو المطارحات: وهي أغاني تستعيد شعبيتها على الرغم من ارتباط موضوعها بالعشق غالبا إذ تركز على صورة المناظرات والمعارضات وتشكل نقاشا شعريا بين شخصين خياليين حول مسألة مطروحة يظهر الأسلوب الجدلي والنقد بشكل واضح ضمن الإطار الشعري فيها.

وخلاصة القول رغم أننا لم نبحر كثيرا في عالم التروبادور إلا أنه يمكننا القول إنه الشعر الشعبي الذي ظهر في جنوب فرنسا كان بمثابة المرآة العاكسة التي تصور التعابير المميزة عن الوعي الفني والفروسي

في جنوب فرنسا خلال العصور الوسطى، حيث يجمع بين اللغة الموسيقية المنظمة المترافقة مع النص، فهو مكون في الأساس من نظاماً شعرياً مستقبلاً يتميز ببنية مقطعية محددة تشمل الغصن والقفل والخرجة. وتتنوع القواف والأشطر كما يظهر أن أغراض الشعر لم تبتعد عن الطبيعة الأساسية للحب والفروسية والنقدة، لكنها تجسدت في أشكال مختلفة عبرت عن مدى غنى هذا النوع وتفرعه، وتعدد وظائفه الاجتماعية والنفسية والجمالية. كما تأكدنا أن شعر التروبادور يمثل تفاعلاً متناغماً مع اللغة والموسيقى، حيث تساهم القوالب العروضية في تنظيم النص وإضفاء الوحدة الايقاعية، بينما تسمح الأغراض والمحتوى الشعري بتقديم رسالة جمالية وأخلاقية واجتماعية. وبالتالي يعد شعر **التروبادور** نموذجاً للتوازن بين الشكل والمضمون والتقاليد المحلية والإبداع الفردي.

[1]- ينظر: يوسف بكار، في الأدب المقارن، يوسف، مكتبة الدار العربية للكتاب، بيروت، لبنان 2009، ص120

[2]- ينظر: محمد عباسة، أثر الموشحات والأزجال الأندلسية في شعراء التروبادور، دار أ م الكتاب، مستغانم، الجزائر، 2012، ط1، ص210.

[3]- ينظر: عبد الإله ميسوم: تأثير الموشحات في التروبادور، الجزائر، ،1982 ص 150.

[4]- ينظر: محمد عباسة، أثر الموشحات والأزجال الأندلسية في شعراء التروبادور، ص14.

[5]- ينظر: يونس شنوان شديفات، الموشحات الأندلسية المصطلح والوزن والتأثير، دار جرير، عمان، الأردن، 2008، ط،1ص1.

[6]- ينظر: لوثي لوبيث بارالت، أثر الإسلام في الأدب الإسباني، تر: حامد يوسف أبو أمحد، مركز الحضارة العربية، القاهرة، مصر، ط 1، ص 38.

[7]- ينظر: آخنل جنثالث بلنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسني مؤنس، القاهرة، مصر، 1955ص.5

[8]- المرجع نفسه

[9]- ينظر: طاهر أمحد مكي، في الأدب المقارن، دراسات نظرية، دار الفكر العر بي، القاهرة، مصر، (د ط)، ص، 184.

[10]- ينظر: ماكس بنشار، تمهيد للفن الموسيقي، تر: محمد رشاد بدران، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر، 1973، 87.

[11]-ينظر: عبد الاله ميسوم، مرجع سابق، ص 162.

[12]- ينظر: المرجع نفسه، ص نفسها.